الإصلاح يبدأ من القمة

صباح علي الشاهر
لندن

بلا مجاملة، وبلا لف ودوران، النظام السوري شأنه شأن كل الأنظمة الشمولية يعج بالإنتهازيين، والوصوليين، والمتسلقين، الذين ما صعدوا لأعلى المراتب نتيجة نضالاتهم، ولا نتيجة دفاعهم عن الشعب ومصالحه، وإنما مداهنة للحزب أو رجالات السلطة المتنفذين، ونفاقاً وتزلفاً، لقد كانت الأبواب مشرعة أمام هؤلاء، مُوصدة وبإحكام بوجه الوطنيين الحقيقيين، والمخلصين بتجرد، ونكران ذات، الذين لا يقبلون بالخطأ ولا يسكتون عنه.

لم يكن الفساد الذي عمَّ جميع مفاصل الدولة، من أبسط شرطي، وأدنى موظف حتى أعلى المراتب، بمُستغرب وعجيب، وإنما المُستغرب والعجيب، هو كيف يمكن لقيادة تتربع على هرم هذا الخراب، أن تصمد أمام ضغوطات أنظمة الإرتداد والإرتهان العربية، وقوى العمالة والإستسلام، ومن قبلهم ومن بعدهم، معسكر أمريكا والغرب وإسرائيل، والمشايعين لهم . إذا كان الذين هم في مركز القرار في سوريا قادرون على مواجهة التحدي، ربما بحكم قناعات إيدولوجية، أو بحكم إيمان متين بإنهم يتخذون الموقف الصحيح، فكيف لمرتشي وفاسد، ترعرع في ظل بيئة طاردة للنقاء، أن يقاوم تأثير المال الذي لم يخطر له على بال، وهو الذي كان لا يتوانى عن أخذ رشوة مقدرة ببضعة ليرات، من مُراجع فقير ومغلوب على أمره، ربما لا يملك قوت عياله، لكنه يضطر من أجل تمشية أمره، لدفع ثمن قوت عياله لمرتش لا ضمير له.

كيف يمكن لهذا المُرتشي، مصاص دماء الفقراء، أن يدافع عن الفقراء، أو وطن الفقراء؟ . كيف يمكن لمثل هذا أن يقف في محور الممانعة والثبات والصبر، وكيف يمكن له أن يضحي من أجل إفشال مخططات أعداء الوطن والأمة؟ ..كيف يمكن للفاسدين والمرتشين تحقيق النصر، أو حتى المساهمة في تحقيقه.

إنهار النموذج الأول لبناء الإشتراكية، لأن الذين إدعوا أنهم بناة الإشتراكية لم يستطيعوا، ولم يعملوا على بناء الفرد الإشتراكي، ظلت الإشتراكية بلا أب، ولا زوج، ولا أبناء، ولا حتى مُتبنين حقيقين لها، لذا فإنه عندما حلت اللحظة الحاسمة، تفرّق الذين إعتادوا على الصخب الثوري، وتُركت الإشتراكية نهباً لكواسر الرأسماليين والمافيات التي تولدّت من رحم الفساد الإداري حكومياً كان أم حزبياً. نعوا الإشتراكية التي لم تكن موجودة أصلاً، والتي وئدت في بدايات ولاداتها، وأصبح زعماء الإشتراكية في ما مضى، فرسان الرأسمالية الآن، وكما كانوا قادة في الزمن الماضي أصبحوا أيضاً قادة في العهد الجديد. لقد كانوا فاسدين مُفسدين، ولم يتغيروا لكنهم غيروا البردعة.

لو كان في ما يُسمى البلدان الإشتراكية إشتراكيون حقيقيون، بالكم والكيف الذي يؤهل لحماية المنجز الإشتراكي، لما كان بإمكان أحد هدم الإشتراكية، مع وجود حماتها الحقيقين، لأن الإشتراكية ليست نظاماً لمصلحة أفراد أو جماعات أو أقلية ما، وإنما هي نظام لمصلحة الأغلبية الساحقة من الشعب، فمن بمقدوره تغييب مصلحة الأغلبية الساحقة، أو الوقوف في وجهها.

وفيما يتعلق بالمثال السوري، من المعروف أن سوريا، ومنذ عقود، قبل حافظ الأسد حتى، إعتمدت على موقف إستراتيجي واضح، خصوصاً فيما يتعلق بالعروبة، أو الوحدة، أو الموقف من إسرائيل، والتبعية للغرب وأمريكا، وهذا الموقف تمثل فيما بعد بما يُعرف بمحور المقاومة والممانعة والصمود، والسؤال الذي يطرح نفسه بقوّة هل عملت السلطات السورية عبر كل تلك العقود على بناء الفرد السوري، وعلى الأخص النخب الحزبية، والإدارية، على نحو يتماشى مع هذه الأهداف، أم أنها أكتفت بالتأييد اللفظي، وتركت الحبل على الغارب، بالنسبة للفاسدين والمرتشين، الذين وجدوا في ولائهم اللفظي للنظام عاصماً لهم من المساءلة، ولم تكتف بهذا بل شجعت على قيام المسؤولين الكبار، الحزبيين والإداريين، بإقامة علاقات مُتشعبه مع بيوتات المال والثروة، وهي جميعها رجعية، ومعادية بالتمام للمثل والأهداف التي يسعى لها النظام السوري، أو يدعي أنه يسعى لها.

تصوروا معي موظف أو حزبي فاسد ومرتش، يُترك كي يعقد علاقات مع حيتان المال، الذين يبعثرون المال ذات اليمين وذات الشمال دونما مبالاة، والذي عرف عنهم أنهم يشترون ـ حسب إعتقادهم ـ كل شيء بالمال، ثم تمتد هذه العلاقات إلى بعض الكبار بزنس، وبالنسبة لبعض الكبار الكبار نسب ومصاهره، تصوروا مالذي يؤول إليه أمر هؤلاء عندما تأتي اللحظة التي عليهم أن يختاروا فيها بين نظام لم يوالوه سوى لفظاً، وحنفيات تدر عليهم البترودولار،

قادة كبار في الحزب والدولة في سوريا، يمنحون المقاومة بضعة جمل حماسيّة، وبعضهم بضعة أبيات من الشعر، لكنهم يرتبطون بحبال الود والمصالح، مع أشد أعداء المقاومة، والنهج المقاوم، لا بل أن بعضهم صديق لإسرائيل، لا يخفي صداقته هذه بل يجاهر بها علناً، ويعادي جهراً وعلانية كل حلفاء سوريا. كان بعض المُعلقين يشير إلى ظاهرة عجيبة، غير معهودة في الحالات الشبيهه بالحالة التي يمر بها الوطن السوري، ألا وهي قلّة عدد المنشقين العسكريين، والدبلوماسيين، والإداريين، وتفسيراً لهذه الظاهرة يؤكد أن الجسم الإداري، والعسكري، والحزبي، والدبلوماسي موال بالتمام للسلطة، فهل الأمر هكذا حقاً؟

إن تفسير هذه الظاهره على هذا النحو يشير إلى أن جسم السلطة كله مقاوم وممانع، وبمعنى آخر ثوري، فإذا كان الأمر هكذا فلماذا كل هذا الفساد في كل مفاصل السلطة والحكم في سوريا؟

أيكون الثوري، والمقاوم، والممانع فاسداً؟ أم أن هذا الفاسد والمرتشي، لا ممانع ولا مقاوم، ولا ثوري، وإنما هو وصولي، إنتهازي، منافق، بيّاع كلام، وهتّاف بحضرة الحاكم، على إستداد لبيع كل شيء من أجل الأخضر الفتان؟

ليس الغريب أن ينشق المنشقون عن النظام السوري، وإنما الغريب أن لا ينشق أحد بعد أن وصل الصدام إلى خواتمه، أو على الأقل إلى المرحلة التي يستبان فيها الأقوى من الأقل قوّة، فكل الدلائل تُشير إلى أن الصراع سيستمر لفترة أطول، مع تأكيد عدم قدرة المعارضة على الحسم لصالحها، ولكن الدمار سيستمر، فهل تتنبه السلطة إلى ضرورة البدء بالإصلاح، وأول الإصلاح وأهمه، متابعة الفاسدين والمرتشين، والذين تسببوا أساساً في ما يحدث الآن في سوريا .

ليس من المجدي التخلص من الفاسدين والمرتشين فقط، وإنما كشف فسادهم أمام الناس، وليس من المعقول أن يقتنع الناس بتقديم شرطي فاسد، رغم أن الشعب، ربما بأغلبيته الساحقه، يعرف جيداً أن سلك الشرطة أصبح مرتعاً للفاسدين والمرتشين، ولا تقديم بضعة موظفين صغار كي يكونوا كبش فداء، فالفساد يُعشش في الرأس .. في القمة .. قمة الهرم المهيمنة والمسيطرة وإمتداداتها، قبل أن يصبح هؤلاء ثوار بعد إنتقالهم من المركب الذي كنزوا فيه إلى المركب الذي سيواصلون فيه الإكتناز، فتضيع فرصة الإصلاح ومحاسبة الفساد، لا عبر السلطة الحالية، وإنما حتى على تلك التي تأتي على أنقاضها.

> تفسير هذه الظاهره على هذا النحو يشير إلى أن جسم السلطة كله مقاوم وممانع، وبمعنى آخر ثوري، فإذا كان الأمر هكذا فلماذا كل هذا الفساد في كل مفاصل السلطة والحكم في سوريا؟

ما جرى في العراق

مأمون شحادة
رام الله

"إن رجال الأعمال الذين لا يعرفون كيف يقاومون القلق يموتون مبكراً"، وعلى ما يبدو فإن غزو العراق كان حملة لرجال الأعمال ومفاجأة مقلقة لهم، إلا أن الذي دفع الفاتورة هو الشعب العراقي.

المطلوب أمام تلك الأسئلة أن تتعرى الملفات الأمريكية من سريتها، بدلاً من التعري بجسد يظهر المفاتن والإغراء أمام غريزة ذكورية تتماهى على جسد ساتي، وبدلاً من نفض الملابس وخلعها يجب نفض الغبار عن تلك الملفات لنعرف الوقائع والأرقام المكدسة في حقائب رجال الأعمال.

مروراً بما ذكر أعلاه.. هناك سؤال يطارد الجميع، ما الذي حصل في العراق؟

لغاية الآن لا يعرف أي أحد منا ما الذي حصل هناك، ولكننا نعرف أن البيت الأبيض ما زال يتكتم على تلك الحقيقة، وما زالت الأرقام تتوارد بنسبة تصاعدية على النحو التالي: آلاف الجنود الأمريكيين مصابون بأمراض نفسية، آلاف الجنود الأمريكيين بين قتيل وجريح، مئات الآلاف من العراقيين بين قتيل وجريح، أكثر من مليون طفل عراقي ولدوا مشوهين جراء الأسلحة الأمريكية.. والقائمة طويلة.

ليست أمريكا وحدها هي التي تتكتم على هذا الجزء من الحقيقة في محاولة لمسحه من الذاكرة، بل الحكومة العراقية صامتة هي الأخرى، والشريك الأكبر في ذلك هو المجتمع الدولي.

إن كانت تلك النساء يردن التعري تضامنا مع أزواجهن الذين غزوا دجلة والفرات، فمن سيتعرى لأجل فتح تلك الحقائب، لكي نعرف الدمار الذي حل وما زال يحل بالعراق، فالحضارة العراقية أصبحت في خبر كان، والاقتصاد جملة خبرية ضاعت بين ممرات المفعول به. والطائفية دخلت عالم التربيعات والتكعيبات.

المضحك المبكي بعد هذا الدمار والهلاك الذي حل بالعراق هو أن تخرج علينا الصحف الأمريكية والبريطانية بخبر مفاده أن "تقرير لجنة بمجلس الشيوخ الأمريكي، وفي سابقة هي الأولى من نوعها، يوجه اللوم بشكل مباشر إلى الرئيس الأمريكي جورج بوش وإدارته بتهمة إساءة استخدام المعلومات الاستخبارية لغزو العراق".

أمام هذا الخبر الخجول أتذكر عالم النفس وليم جيمس حينما قال: يبدو لنا أن الفعل يعقب الإحساس، ولكن الحقيقة أن كليهما يمشي جنباً إلى جنب، فإذا سيطر علينا الفعل الذي يخضع مباشرة للإرادة أمكننا بطريق غير مباشر أن نسيطر على الإحساس".

وعلى الرغم من اعتراف لجنة مجلس الشيوخ بأخطاء بوش في محاولة لطمس ومحو ذاكرة العراق من مخيلة العقل الدولي، وفق قاعدة بناها العالم النفساني الفرد أولر مفادها: أن من أروع مزايا أي إنسان، مدى قدرته على تحويل السالب إلى موجب.. إلا أن ثمة أسئلة تطرح على المطبخ السياسي الأمريكي:عن أي مقدرة تتحدثون؟ وعن أي معادلة استطعتم صوغها والسالب النفسي ما زال يرافق مخيال جنودكم؟ وعن أي ضمير تتكلمون وقد تركتم العراق أسفل السالب بألف درجة؟ وعن أي ديمقراطية تشيعون والتشاحن الإيجابي بين السالب والموجب تحول إلى مشاحنات طائفية وعرقية تدك أرض الرافدين؟

بعيداً عن حملة التعري "تضامناً" مع الجنود الأمريكيين، أذكّرُ البيت الأبيض بما قاله الكاتب الأمريكي ديل كارينجي: "احتفظ بمفكرة تسجل فيها حماقاتك وأخطاءك وحاول مراجعتها حتى تستفيد منها في مستقبلك".

كاتب وصحافي من فلسطين